الفصل السادس عشر

أخـونا في الأردن

في ٢٥ مـايو ١٩٤٦م تقلد الأمـيـر عـبـدالله لقب ملك المملكة الأردنيـة الهاشمية باتفاقية بينه وبين الحكومة البريطانية (واغتيل الملك عبدالله في ٢٠ يوليو ١٩٥١م عندما كان يهم بدخول المسجد الأقصى في مدينة القدس، وقد كتبت هذا الفصل بفترة طويلة قبل الاغتيال ولم أحاول تغييره بأي حال). وقعت الاتفاقية في لندن في ٢٢ مارس من العام نفسه (عام ١٩٤٦م) بواسطة مستر بريفين ممثل بريطانيا وإبراهيم باشا هاشم رئيس وزراء الأردن، وانبثقت اتفاقية أخرى عن تلك الاتفاقية وتم توقيعها في عمان بعد عامين واعتمدت في لندن في ٣٠ أبريل ١٩٤٨م. أدت الظروف التي سادت في فلسطين إلى تغييرات انتهت بميلاد المملكة الأردنية الهاشمية الحديثة والمعروفة حاليًا.

وفي صيف عام ١٩٤٨م زار الملك عبدالله المملكة العربية السعودية واستقبله ابن سعود وتبودلت الهدايا كالعادة والكلمات الودية، ونظر الزائر حوله ليلحظ التحولات التي طرأت على المكان منذ أن زاره لآخر مرة قبل ربع قرن من الزمان، وحرك حليب وعسل الرياض ذاكرته للماضي العريق وخيراته السابقة التي تقلصت إلى ظلٍ من الماضي، وضاعت تلك الأيام بكل مجدها إلى الأبد، وماضي العرش ماثل أمامه دون نسيان بكل عظمته وتاريخه. وصار ملكه مدعومًا بعنصر أجنبي ليس بقدر المكانة والعظمة التي وُلد بها، فلم

يجد عالمًا يعظمه ولا عظمة بقدره. أما حفاوة الاستقبال والسطحيات التي لازمت الزيارة فلم تخف شعور الضيف والمضيف بأنهما مختلفان، وقد تكون ذاكرتاهما قد عادت بهما إلى العام ١٩١٩م حين حدثت الكارثة، إذ كتب ابن سعود إلى عبدالله يحذره من التقدم إلى واحة الخرمة. ورد الأخير "سأتناول إفطاري غداً في الخرمة وأتعشى في الرياض في الأسبوع القادم". وفي المساء هزم جيشه عند وصوله تربة. أما هو فكما وصف الحال بنفسه "نجا بمعجزة" بهروبه من أرض المعركة، ولم ينس الوهابيين أبداً. ولما زاروه في الأردن عام ١٩٢٢م حدثت المعجزة الأخرى، ففي زيارتهم الثانية لتلك البقعة من الأرض كان قد سافر لزيارة والده في مكة قبيل وقوع عاصفة الوهابيين على الطائف.

لذا لا عجب في أن عبدالله طيلة حكمه كان مهووسًا بابن سعود ورفاقه الوهابيين، وكانت له أحزان حياة وأقدار مرة، ولم يفقد الأمل طامعًا أن يكون المستقبل أفضل من الماضي المرير. وكان يرجو أن يعمل المستقبل على إصلاح ما كان له ولعائلته من رجال نجد، من آلام عندما أزاحوا مجدهم وملكهم بعيداً عن أرض الأشراف أسلافهم. وكان هذا واضحًا في مذكراته التي نشرها بالعربية قبيل توليه الملك، وقد ترجمها جوناثاني كيب الذي استخدم عبقريته في نقل تلك العربية الفصيحة إلى البريطانية الواسعة الانتشار، وإلى لغة عامة يخفي ويظهر منها جوانب عديدة من مشاعر الملك والتي كانت تنشر من وقت لآخر في مقالات على النمط الإغريقي ونهجه.

"يسقط ابن عبدالوهاب ومن معه" كان هذا قد تكرر في النسخة العربية أكثر من مرة لعبدالله. ولكن النص الإنجليزي كان يخفي ذلك وقد حُذفت

مثل هذه العبارات التي تمثل صرخة يأس صادرة من أعماق المؤلف: "لو علمت وزملائي أن هذا ما كان سيحدث من ثورة العرب وهيجان الشعب لكنا فارقنا هذا الموقف ومن هم وراءه. إن الأرض المقدسة يحكمها الآن أناس تربوا على السلب والنهب والغزو والاعتداء وسفك الدماء، يدعمهم أناس مثلهم من العراق ومصر وسوريا أمثال يوسف ياسين النصيري وفؤاد حمزة الدرزي وحافظ وهبه تاجر الكويت، من الذين سرقوا حصادنا فلا حول ولا قوة إلا بالله. والله يعلم أننا ما أردنا إلا مصلحة العرب في أعمالنا، ذلك كل ما رمينا إليه. ولكن ماذا فعلت هذه الشرذمة في الأرض المقدسة: تآمر على شعب الحجاز وإذلال له ليصلوا لثروته ويأخذوا أموال الحجيج وينفقوا ذلك في كل حرام، ثم منحوا امتياز البحث عن النفط دون تمييز، وفتحوا الباب الشرقي لبلاد العرب بما يلقي بالمخاطر على الدين والأخلاق دون أن يستشيروا في ذلك أهل العلم ولا مجالس الشورى أو مجلساً دستورياً أو أي برلمان، ولكن لا أحد يلام سوى العرب".

جاء هذا كله من أرض اشتهرت بكل أنواع الظلم والفساد حتى جاء البطل الوهابي لتطهيرها، وتأتي مسألة الامتياز في التنقيب عن النفط في الشرقية وأثره على سكان الحجاز الأشراف وعلى الدين والعمليات التجارية والسياحية التي صحبت النفط، فقد فرض الوهابيون قيوداً عل استغلال الحجيج، وقد أثبتت الأيام أن الأمر لا يزال بالنسبة للحجيج كما كان في الماضي، فهم يشتكون حتى اليوم كما اشتكوا في الماضي، ومشكلة الحجاز هي أن المنتصرين قد عاملوا أهل الحجاز وكأنهم أسرى، بما أضر بالإسلام

والعرب. وكان لابد للنار القديمة أن تخمد. وملك الأردن لم يكن يقف على أرض ثابتة لشجب نتائج تأثيرات الحضارة الغربية على الأرض الحرام، وفيما يخص الدين والأخلاق فإن مكة هي مكة كما كانت في أيامه، فلا محل لتحامله.

أما امتياز البحث عن النفط، فهنا نقول إن الوهابيين جوزوا على فضائلهم بتدفق الأموال بما فاق أحلامهم، وتستطيع هذه الثروة إذا استخدمت بحكمة وضع أسس الحياة الكريمة لجزيرة العرب، أما الأردن كما يعرف عبدالله جيداً فلن تستغني عن بريطانيا ودافع الضرائب البريطاني فيما يخص أمنها وتقدمها، وكذلك على نعماء أمريكا.

إنني أذكر حين كنت ممثلاً للحكومة البريطانية في بلد الملك عبدالله وقت كان مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه يعد كافياً إلى جانب إيراد بسيط لتغطية حاجة الأردن. إن بريطانيا تضخ اليوم للأردن مبلغ ٣ ملايين جنيه، إضافة إلى مليون آخر لملاقاة حاجة اللاجئين الذي تدفقوا على الأردن هرباً من إسرائيل. والأردن بسكانه البالغين نصف مليون في أرض لا تتجاوز حافة النمو ولا يزيد دخلها عن مليون جنيه من كل إيراداتها، لا تستطيع تغطية مصروفات الإدارة والدفاع إلا بعون خارجي. والمساعدات البريطانية تأتي على حساب القيود المفروضة على الأردن وعلى حساب استقلالها وقدرة حكومتها على الحركة. يقول عبدالله نفسه في مذكراته: "لم أحاول أبداً إخفاء المصاعب التي تواجه وزرائي من تدخل بريطانيا عبر ممثلها المقيم" والشخص المقصود كان سير هنري كوكس الذي خلفني في عمان عام ١٩٢٤م وتحكَّم في حكومة الأردن

طيلة خمسة عشر عامًا حتى انتهت فترته عام ١٩٣٩م. وهناك قيود لا تزال مفروضة على الأردن "المستقلة" من قبل بريطانيا، فلا تستطيع الأردن طرد الجيوش البريطانية من أراضيها، كما هو الحال مع مصر التي عانت حكومتها وشعبها من وجود قوات الاحتلال في بلدهم. ورأى الأمير عبدالله آنذاك أنه لابد من أن يوسع حدود بلاده حتى يستطيع الإفلات من قبضة بريطانيا كما هو حال جيرانه. ولهذا طرح فكرة «سوريا الكبرى» وهي فكرة عظيمة في حد ذاتها ولكن لم تكن مقبولة لدى المحتلين الآخرين، وما كان ذلك ليتم إلا تحت سترة الملكية وتحت إشرافه المباشر. كذلك كانت فكرة "الهلال الخصيب" مع فرق السعة في التطبيق، والتي يحتفظ لنفسه فيها بدور القيادة لما له شخصيًا من مكانة في العائلة الهاشمية المالكة. وقد قال في مذكراته: "إذا عزف العرب عن الدخول تحت إمرة قريش فوداعًا للعرب وداعًا لقريش".

إن هذا الهوس بالحق المقدس لعائلته هو الذي أفقد عبدالله كل شيء، وفي كل مرة. والعرب الذين جربوا كل أنواع الحكم عدا الحكم الهاشمي لا يعتقدون بما يعتقد به عبدالله، وما على عبدالله إلا الاعتماد على الأسوأ، وهو الاعتماد على بريطانيا في مناحي الحياة. وما كان قدره إلا ذاك وإن ظل ينظر لجاره بعين الحسد لما له من ثراء كاف لحاجاته دون عون خارجي.

ويذهب عبدالله بعيداً في الغيرة من ابن سعود على الثمر الذي جناه الأخير والذي ما كان يحلم به عبدالله. ومن يقرأ النسخة الإنجليزية من مذكراته سيدهش حين يقرأ تحت فصل "امتياز النفط في الحجاز "الخطاب الذي كتبه إلى المندوب السامي في فلسطين في إبريل ١٩٤٤م. إذ كان يجب

أن يعرف كما يعرف كل الناس أنه ليس هناك وجود لامتياز من هذا النوع، لأنه لا يوجد نفط في الحجاز. وفي ساعة غضب خلط بين الذهب والنفط، الذي لا وجود له أيضًا، مع أن الامتياز لم يشمل البقع المقدسة، مكة والمدينة، في التنقيب. وحمل على ابن سعود في منح الامتياز في التنقيب رغم أن الهاشميين لم يجرؤوا على فعل ذلك. ولكن التاريخ يقول بأن خلفاء العباسيين الهاشميين استغلوا مناجم مهد الذهب التي يشير إليها الملك عبدالله بأنها تقع غرب المناطق المقدسة وهي ليست كذلك، بل تقع بين المدينتين مكة والمدينة شرق الخط المستقيم الذي يصل بينهما. ومن المهم أن نذكر أنه كان هناك شخصية مرموقة من الأسرة الهاشمية المرموقة كان راغبًا في المشروع، لقد استغل بعض إنتاج هذا المنجم في تزيين أماكن في القدس.

يقول الملك عبدالله: "إن كل المنطقة من مدائن صالح إلى حدود اليمن وشرقًا إلى حائل ونجد تعد منطقة مقدسة وأرضًا حرامًا ولا يجوز إنشاء أي عمل صناعي عليها، وهي أرض للعبادة فقط من قبل المسلمين والحجاج والزوار. وهي أماكن للتأمل والخلوة والاعتكاف لعبادة الله وأداء الفرائض الدينية. وكانت على هذا الوضع طيلة التاريخ الإسلامي، وإذا كان ابن سعود قد أخضع هذه المناطق فهو لا يملك الحق أن يجرح قدسيتها أو يغير معالمها. ولا يحق له إدخال من يجري وراء الدنيا إليها، ومن يضع الملهاة أمام الناس حتى يبتعدوا عن قدسية مكة والمدينة، إذ إن ذلك سيؤدي إلى تلوث هذه البقاع بمغريات الدنيا وستقوض سكينتها في وجه من كانوا يأتون من كل العالم للتوبة من ذنوبهم وآثامهم. إن ملك نجد قد لا يعلم هذه الأمور لأنه

جديد في إمارته على الناس. آمل أن تقروا بأن هذه هي الحقيقة وليس فيها تحامل من جانبي، وآمل تقدموا كتابي هذا لرئيس وزراء بريطانيا بأسرع فرصة لأن العالم لن يسكت على هذا، وسوف تعم ردود الفعل كل أنحاء العالم الإسلامي".

لم تنل الرسالة إعجاب ولا قبول المندوب السامي ولا رئيس حكومة بريطانيا ولم يصدقوا ما قيل عن ابن سعود، وارتاح الحجاج والمسلمون كثيراً للخدمات والتطور الذي طرأ على المملكة بفضل النفط المكتشف في الشرق على سواحل الخليج الفارسي.

إنه لحق أن الملك حسين لم يكن ليدخل إنتاج صناعة الكفار الحديثة مثل: السيارات إلى الأرض المقدسة إلا واحدة لاستخدامه هو فقط. وكان خط الحجاز الحديدي قد تم إنشاؤه قبل وصوله للإمارة، وكان هو السبب الرئيس في توقف امتداده ووصوله إلى مكة كما كان مقرراً، ولم ألق حاجًا رفض السفر في سيارة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، أو من يرفض ركوب القطار إلى مكة أو المدينة إذا وجد قطاراً، ولم يكن خطأ أن يحج الإنسان في سيارة، وإلا فإن ابن سعود كان يعد مخطئًا لتيسيره للحج بالسيارات وكان ممعنًا في الخطأ حين طرق كل باب ممكن لتسهيل مهمة الحجيج. وكان ابن سعود يسعى طيلة حكمه لراحة الناس والحج بصفة خاصة وكان يشعل الشموع لإضاءة الدرب ولا يلام على سعة بيته للحجيج والضيوف. كل ذلك شكراً لله على نعمته عليه. ويحمد له، بعد الله، أنه خلال ربع قرن من عصره ما عانى الحجيج من الأوبئة والأمراض. وهذا سجل حافل في تاريخه مقارنة بعصر الأتراك والأشراف.

والملك عبدالله رغم كل ولائه فإنه يلقي اللوم على والده في تمكن الوهابيين، بعدم استماعه لنصح البريطانيين له في وقت سابق حين كان إبراهيم حقي باشا رئيس حكومته، وبعد رجوع الأخير من كارثة تربه عام ١٩١٩م وجد والده مريضًا ومتوترًا. وكان ذلك بداية المرض الذي أدى لوفاته بعد أن أصبح كثير النسيان وكثير الشك وفقد حكمته. في كل هذا يلوم الملك عبدالله والده الذي ركب بغلاً وهو في سن الخامسة والسبعين على مدى يومين من العقبة حتى معان على طريق وعر وفيما بعد إلى عمان مما أدهش المستر هربرت صمويل. ولم تظهر على والده وقتها ضعف الذاكرة أو النسيان اللهم إلا إن كانت فكرة استبدال ابنه عبدالله بابنه علي في إمارة الأردن هي دليل ذلك. وتعطل هذا المشروع لأسباب خارج نطاق الأردن، فقد ألغت أنقرة الخلافة، وسارع الملك حسين الذي يسعى لهذا المنصب الشاغر إلى مكة لتنصيب نفسه، وقد ورد في مذكرات عبدالله ما يفيد بتنصيبه خليفته، غير أن محرر المذكرات ينفي ذلك. يقول الملك عبدالله في فقرة أخرى لم تظهر في النسخة العربية "لقد قمت بجهد لإقناع الناس بمنصب الخلافة". ربما أن تلك حقيقة إذ لم يصدر عن بريطانيا موافقة أو ممانعة. وأذكر أني قرأت في مراسلات مكماهون بأن الحكومة البريطانية أعربت عن رغبتها في أن تعود الخلافة إلى مأواها في جزيرة العرب. وخروجًا على الأوامر لم أناد الملك عبدالله بلقبه الجديد "جلالتك" خلال حفل أقيم له بمناسبة مغادرته للحجاز. وقد يقول الملك عبدالله بأنني سعيت لجعل استقلال بلاده حقيقه في وقت كان يفضل فيه هو أخذ المال من بريطانيا مع كل القيود المفروضة.

وفي مكان آخر من مذكراته يتحدث عن أنشطة والده، مخلب الأتراك، في الحجاز، فيشير إلى مطامع كل من الوهابيين والأشراف للسيطرة على قبيلة عتيبة عام ١٩١٢م. وقد تناولت هذه القصة في فصل مضى. وانتهى الأمر باعتقال الشريف حسين لأخ الملك ابن سعود، الأمير سعد، وقبل ابن سعود بشروط مهينة مقبال إطلاق سراح أخيه سعد. وكان ذلك النصر القصير الأجل مقدمة لمصائب كبيرة واجهت الشريف حسين فيما بعد. ولا أدري لماذا جعل مترجم المذكرة اسم المعتقل سعيد وليس سعد؟ وصححه المحرر وجعله سعود في الحاشية! وقال إن اللورد آرمسترونج في كتابه: "ملك العرب" قد ذكر بأنه سعد، وكان ذلك بالفعل هو اسمه، وكان قد قُتل فيما بعد في صراع قبلي عام ١٩١٦م وهناك أخ آخر لابن سعود لا يزال حيًا.

وفي أصل مذكراته العربية امتنع الملك عبدالله ولم يذكر تاريخ مولده ولا عمره لأسباب تفهمها أية امرأة! ولكن مترجمه انزعج لذلك الحذف وجعله يقول: "أنا من مواليد مكة في العام ١٢٦١هـ. وقد عمد المحرر إلى ترجمة تاريخ ميلاده بالعام ١٨٨٢م. وفي مكان آخر ذكر الملك عبدالله عام دستور الأتراك على أنه عام ١٢٩٣هـ وفي الواقع كان ذلك عام ١٩٠٨م (أي ١٣٢٦ / ١٣٢٧هـ) والملك عبدالله غير ملام فيما ذهب إليه مترجمه.

وخشية أن يظن أن ابن سعود، المسؤول عن تقويض سعادة الهاشميين، هو عدو الملك عبدالله الوحيد فقد اعتقد البعض أن أخاه فيصلاً كان له دوره بعد أن حصل على نصيب الأسد من المال والأسلحة لتصبح سوريا في الوقت المناسب دولة مستقلة عن الحجاز. ووافق الفرنسيين على تنكيس علم العرب

في بيروت تجنبًا لإثارة مشاعرهم، وذهب إلى مؤتمر باريس لا دعمًا وحماية لمصالح العرب، ولكن لتثبيت عرشه هدية من كالمنصو وقد ضحى بفلسطين خدمة لمصالحه. أما جامعة الدول العربية فلم يخف شكوكه في نجاحها، إذ يقول إنها مغامرة خطيرة تحت اسم كبير يجمع ويرفع شعارات وبرامج طموحة دون القدرة على تنفيذها، بينما كل دولة من دول الجامعة خاضعة لقوة كبرى أجنبية ولا تستطيع العمل خارج القيود التي تكبلها، وتبقى الشعوب العربية وملوك العرب خارج الإطار. فتأملوا هذا يا أصحاب العقول.

وفي الختام كان الملك عبدالله هو الخاسر الأكبر في سياسة العرب الحديثة بميل طبيعي للتآمر ضد ابن سعود منافسه الناجح، محاولاً الانتقام منه متى واتته الظروف. هذا جانب من الصورة، فماذا ترى في الجانب الآخر منها؟ إنه جانب باهت ولكن ليس كليًا. فسوريا والعراق ومصر والمملكة العربية السعودية لا يوجد لديهم ما يحسدونه عليه، واليمن ولبنان بعيدان عن ميدانه ولا تنشغلان به. ولكن عبدالله لديه شيء لم يكن لأحد من معاصريه فيما عدا أخاه فيصل. وليس الأمر في كونه يملك الجاذبية والسحر، فكل العرب أو جلهم يملكون ذلك. إنه يملك خاصية التمسك بالأوربيين الأنجلو ساكسونيين. وكما أخوه فيصل، وهو «الرجل ذو العيون الزرقاء» للأمم المتحدة، رغم أن بلده ليس عضواً فيها، والابن المدلل لبريطانيا. وكان يملك في ذلك ورقة لم يملكها أحد من قادة العرب للضغط بها! واللواء العربي أكثر جيوش العالم عدة وعتاداً، ولا يعدو كونه حرسًا للاستعراض ولا وزن له في الحرب. ألم يسيطر على الموقف عام ١٩٤١م في الشرق الأوسط بخسارة

رجلين قتلا في كل تلك الحملة. أليس هو الجيش العربي الوحيد الذي لم يخسر المعركة في فلسطين؟ وكان اليهود يهابون سلاحه؟ وهم الذين تركوا مثلث رام الله – اللد – تل كرم للعدو وفق ترتيب معين، وأليس في مذكرات الملك عبدالله أن حرس الحدود الأردني حين فشل في القيام بدور في الصحراء حول الجنرال جلوب وجيش البدو اللواء العربي إلى «فخر للأردن».

إن العالم الحديث يتكئ على مساند من الرياء والنفاق. و"لحم الطير تأكله الكلاب". والعربي يتسم بحساسية خاصة تجاه الدعاية والإعلام. فكتَّاب المديح وشعراء السلاطين ينالون عطاياهم نقداً، أما عبدالله فيدفع بغير النقد. فالمديح الذي تزفه الصحافة البريطانية وهيئة الإذاعة البريطانية هو ثمن مباركته لسياسات بريطانيا، وليس من المبالغة القول: أن الملك عبدالله قد برز من ركام الفوضى التي رسمت السنوات الأخيرة ليجد مكانًا في العالم العربي في وقت كان نجم غيره آخذ في الأفول نتيجة مواقفهم المستقلة عن الغرب. إنه لا يزال شخصية تتمتع بشهرة واسعة، ولكن الشهرة ليست دومًا مقياسًا لنقاء الجوهر ودليلاً للكفاءة، لندع الملك عبدالله يعاني قسوة قدره ونرى إن كان معاصروه يضمرون له الحسد!